«مركز الرسول (ص) في مدينة يثرب ودوره في تأسيس الدولة العربية الاسلامية الاولى»

السيد رياض هاشم هادي
جامعة الموصل /مركز الدراسات التركية

يمكن اعتبار يوم ٢٤ـ ايلول ـ ٦٢٢م هو تأريخ نشأة الدولة العربية الأسلامية الأولى، حيث أكتملت فيه الأسس الضرورية لقيام الدولة من سلطة سياسية متمثلة بقيادة الرسول (ص)وشعب مؤلف من الأوس والخزرج مسلمين وغير مسلمين والمهاجرين واليهود وأقليم محدد بحدود مدينة يثرب (٢) .

وقد كان من نتائج الهجرة الى مدينة يثرب، ان حدثت متغيرات جديدة في الظرفين الزماني والمكاني، على العكس من مكة، اذ اصبح المسلمون ، هم القوة الأساسية الفاعلة واصبحت المدينة قاعدتهم وبيدهم قيادتها، يتمتعون بقدر كبير من الحرية ويمسكون بزمام الأمور، وكان على القوى الأخرى ان تكيف وضعها وفقاً للاطار الجديد. وهذه المتغيرات فرضت على عملية بناء الأداة التي مورست في مكة ان تنحو منحى آخر يرتبط مع الخط العام الذي أرسي في مكة ،غير انه يمتاز عليه في آفاقه الجديدة ، فالأداة التي

(١) الملامح : هاشم يحيى : نشأة دولة المدينة فى يثرب (مجلة الجامعة ، العدد ١١ السنة الثانية، ١٩٧٢ ، موصل) ص ٥٩ .
Gardet; Louis: Mohammed anism. Newyork, 1961, P22
(2) Hell; J. The Arab Civilization, Cambridge, 1925, P 20

ركز الرسول (ص) على بنائها في مكة والتي قوامها« الأنسان النموذج» أصبحت في يثرب «المجتمع النموذج» واصبح على النماذج التي تم تكوينها في مكة ان تكيف نفسها مع شروط بناء الجماعة وان تقود عملية البناء الجديد في آن واحد (١) .

وفي ضوء ماتقدم يمكن ان نتساءل هنا: ماهو مركز الرسول (ص) واتباعه عندما هاجر من مكة الى المدينة واتخذها مقراً لدعوته ؟

هل كان موقعه في مدينة يثرب عندما هاجر اليها واستقر بها كلاجيء ؟ أم كحليف نزل في حماية أحد زعمائها طالبا منه الحماية له ولاتباعه الضعفاء بعد أن صمم رجال الملأ في مكة على الفتك به وبأتباعه ؟

آم انه دخلها نبياً رسولا يقود المؤمنين به وبدعوته ، ومصراً على تحقيق اهدافه العقيدية والسياسية بعد ان اصبح ذلك عسيراً عليه في مكة ؟

فلو افترضنا انه خرج من مكة فاراً خائفاً من نقمة قريش عليه، ودخل مدينة يثرب لاجئاً أو حليفاً في حماية احد زعمائها: أو حتى في حماية المؤمنين به وبدعوته من «الأوس والخزرج» لكان موقعه فيها لايتجاوز الحليف، والحليف أقل مرتبة: من ابن القبيلة المنحدر من الجد الأعلى للقبيلة حيث ان العربي يعتقد بتحدره من جد واحد وبوحدة النسب بين أفراد قبيلته(٢). وسيترتب على ذلك عدم ممارسة الرسول (ص) لأي نشاط «سياسي أو ديني» داخل المدينة وخارجها، ثم أن اتباعه سيكونون تبعا لذلك أقل مكانة منه ، وبالتالي سيعاملون معاملة الحلفاء، واذا ماوجد حلفاؤهم منهم ضررا عمدوا الى انهاء حلفهم واخراجهم من المدينة متى شاءوا .

(١) الحديثي : نزار عبد اللطيف : محاضرات في التأريخ العربي ، د/ط، ص٩٦ .
(٢) العسلي : خالد صالح : نظام المؤاخاة في عهد الرسول(مجلة دراسات للاجيال جامعة بغداد، العددان ٤-٥ ،ت(، ١٩٨٣) ص ٢٧ .

ولكن من الملاحظ على طبيعة تحركات الرسول (ص) في المدينة بعد هجرته اليها: انه لم يكن مركزه فيها كلاجيء ولا كحليف، ولم يكن اتباعه من المهاجرين بالحلفاء .

من المعلوم ان الرسول (ص) هاجر الى مدينة يثرب بناء على دعوة من اهلها المؤمنين به وبدعوة التوحيد من زعماء الأوس والخزرج والذين كانوا يشكلون مركز قوة سياسية فيها امثال: سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وعبادة إبن الصامت (رض) (١) وغيرهم من زعماء يثرب البارزين. ثم انهم تعهدوا بأن ينصروه ويدافعوا عنه مادام في المدينة وقد ذكر ابن هشام حواره مع وفد المبايعين من الأوس والخزرج يوم العقبة الثانية «ابايعكم على ان تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وابناءكم» (٢) اجابه البراء بن معرور (رض) « نعم والذي بعثك بالحق نبياً لنمنعك مما نمنع منه ازرنا فبايعنا يارسول الله ، (*) فنحن والله أبناء الحروب، اهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر» (٣).

ويشير هذا النص على ان المبايعين تعهدوا بالدفاع عن الرسول (ص)والقتال في سبيل دعوته وحمايته من أي اعتداء خارجي يقع عليه طالما هو داخل حدود المدينة .

وكان في المحيط الجديد عدد كبير من المؤمنين به من الأوس والخزرج وهو الأمر الذي مهد له سبيل الزعامة السياسية في مدينة يثرب مستقبلا . وان دعوته هذه لم تقابل في مدينة يثرب من قبل المشركين بالأستغراب والمعارضة

(١) ابن هشام: ابو عبد الله محمد: سيرة النبي : تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، د/ط دار الفكر، بيروت ، د/ت، أربع أجزاء ، ج٢، ص ٤٣ —٤٤

(٢) ابن هشام: ج٢، ص ٥٠—٥١ .

(*) أزرنا: يعني نساءنا ، والمرأة يكنى عنها بالأزار (انظر: ابن منظور: محمد بن مكرم :لسان العرب ،د/ط ، دار صادر ، بيروت، ١٣٧٥هـ— ١٩٥٦م) ج٤، ص١٦—١٨.

(٣) ابن هشام: نفس المكان .

والأنكار بصورة مباشرة وعلنية كالذي قوبلت به في مكة من قبل رجال الملأ فيها (١) .

واما اليهود الذين كانوا حلفاء للاوس والخزرج فقد رأوا ان المصلحة تقتضي محالفة من يحالف حلفاءهم الى جانب انهم وجدوا ان دعوة الرسول (ص) الى التوحيد اقرب الى عقيدتهم من عقيدة المشركين الوثنية ، ولربما أدى نجاح الرسول (ص)في توحيد اهل المدينة حوله الى توفير الأمن والرخاء لمدينة يثرب التي مزقتها الخلافات وتدهور فيها الأمن وتردت فيها احوال الزراعة والتجارة . وبالتالي فأن مصالحهم الأقتصادية اقتضت انذاك الترحيب بالنبي الجديد .

....ومن المعلوم ان مدينة يثرب كانت قد افتقدت الزعامة السياسية البارزة على المستوى الذي يؤهلها لمنافسة مكة التي احسنت الأستفادة من العقيدة الوثنية لنمو اقتصادها والتي نجح رجال الملأ في فرض النظام والأستقرار فيها كما ان غياب التنظيم الحكومي في ابسط صوره في مدينة يثرب فسح المجال للخلافات والمنازعات القبلية الشديدة فأخذ عقلاؤهم يتطلعون الى الوسائل التي تنقل مدينة يثرب الى حالة الهدوء والأستقرار (٢)

وعليه نجد ان هناك رغبة لدى جميع سكان مدينة يثرب من المؤمنين بالرسول (ص) والمشركين واليهود في ايجاد زعامة سياسية قوية تعمل على توحيد المدينة ورأب الصدع فيها وقد ذكر ابن هشام ذلك اذ قال: «وقالوا له: انا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ،وعسى ان

(١) العلي : صالح احمد: تنظيمات الرسول الادارية في المدينة (مجلة المجمع العلمي العراقي المجلد السابع عشر، بغداد، ١٣٨٨هـ- ١٩٦٩) ص ٥٠ .

(٢) الملاح : هاشم يحيى : المنافقون في مدينة الرسول(مجلة كلية الدراسات الأسلامية بغداد، العدد الخامس، ١٣٨٤هـ- ١٩٦٥م) ص ٤٧٢ .

يجمعهم الله بك، فستقدم عليهم فتدعوهم الى امرك ونعرض عليهم الذي اجبناك اليه من هذا الدين ، فأن يجمعهم الله عليه فلا رجل اعزمنك» (١).ولما كان الرسول (ص) نبياً وقد ذاع صيته في الحجاز وعند اهل يثرب خاصة ولم يكن واحداً من سكان الحيين المتخاصمين (الأوس والخزرج) كان بين العوامل التي دفعتهم الى تسليم القيادة السياسية اليه .

ان ماتقدم لايعني ان وجود الرسول (ص) في مدينة يثرب كان مرغوباً به لدى جميع الأطراف ،فهذا عبد الله بن أبي بن سلول زعيم المنافقين -لاحقا- لم يكن راغباً بوجود النبي (ص) في مدينة يثرب وقد ذكر ابن هشام : فلما زاره الرسول (ص) يوماً قال له« ياهذا ،انه لا أحسن من حديثك هذا : ان كان حقاً فأجلس في بيتك فمن جاءك له فحدثه اياه، ومن لم يأتك فلا تغته به ولاتأته في مجلسه بما يكره منه» (٢). وكان يحس ان وجود الرسول (ص) في مدينة يثرب قد سلبه حقه في الملك (٣) .

وكانت الشاعرة اليثربية عصماء بنت مروان تحرض اهل يثرب على الرسول (ص) وتعيب عليهم رئاسته لهم فكانت تقول :

فبئست بنو مالك والبنيت وعوف وبئست بني الخزرج
اطعتم اتاوي من غيركم فلا من مرد ولامنجح (٤)

وهذا أبو قيس بن الأسلف احد زعماء الأوس الذي حال بين قومه وبين الأسلام عن بني امية وخطمه ووائل وواقف (أوس الله) كان شاعرهم وقائدهم

---

(١) ابن هشام: ج٢، ص٣٨ هكذا وردت يبدو ان الأصح «عليك»
(٢) ابن هشام: ج٢، ص٢١٩ .
(٣) انظر المصدر نفسه، ج٢ ،ص٢١٦ .
(٤) الواقدي: محمد بن عمر: المغازي: تحقيق: مارسدن جونس، د/ط ، عالم الكتب ، بيروت، ١٩٦٦م، ج١، ص١٧٢ .

يسمعون منه ويطيعون فلم يزل بهم على ذلك حتى انقضت غزوة الأحزاب (١) نستنتج مما سبق عرضه بأن الرسول (ص) دخل مدينة يثرب كرسول قد آمن به جماعة من سكان مدينة يثرب من ذوي المكانة والنفوذ، وكرجل دولة ولم يدخلها هارباً من مكة طالباً من المؤمنين به الحماية له ولاتباعه. وبناءً على طلبهم ، فكانت منزلته(ص) منزلة قائد مجموعة سياسية لها أهدافها العقيدية وكانت ترغب في تحقيقها ونشرها،وكان اتباعه تبعا لذلك يتمتعون بنفس المنزلة التي كان عليها المؤمنون به من الأوس والخزرج لهم نفس المكانة والحقوق، وعليهم نفس الواجبات والألتزامات .

وبناء على المكانة التي كان يتمتع بها الرسول (ص) في مدينة يثرب وقوة مركزه فأنه استطاع ان يرسي فيها القواعد الأولى للدولة العربية الأسلامية فتنظيماته الإدارية كانت عظيمة الأهمية فقد قام ببناء المسجد ليكون مقراً للامة الناشئة تقيم فيه شعائرها وتتداول فيه مختلف امورها، فكان بمثابة دار ندوة لهم. ففيه كان يتشاور الرسول (ص) مع اصحابه في شؤون الجماعة الأسلامية وعلاقاتهم بقريش وغيرها وما يتصل بذلك من سلم أو حرب (٢). وفيه كانت تعقد ألوية المسلمين عند خروجهم اما للاستطلاع أو لتحقيق بعض المهام العسكرية وفيه كان الرسول (ص)يستقبل وفود العرب القادمة الى المدينة لعقد حلف معه أو لأعلان اسلامها، والى جانب كل ذلك كان المسجد مركزاً علمياً وثقافياً .

واما المؤاخاة فقد هدف الرسول (ص) من خلالها الى وضع صيغة لتنظيم العلاقات بين المهاجرين والأنصار . وذلك لأن مجتمع يثرب لايختلف عن

---

(١) راجع المصدر السابق ، ج٢، ص٤٦ .

(٢) سالم: عبد العزيز: تأريخ الدولة العربية، ط ١ ،مؤسسة الثقافة الجامعية د/م، د/ت ،ص ٨٠ .

المجتمعات القبلية الاخرى فأن نظمهم الأجتماعية كانت نفس النظم السائدة فعلا بين القبائل العربية في شبه الجزيرة العربية، ونحن نعلم ان القبيلة تعد وحدة اجتماعية يقوم عليها النظام البدوي ؛ وينظر افراد القبيلة الواحدة الى انفسهم على انهم متحدرون من اصل واحد مشترك ونسب واحد وهو الجد الأعلى للقبيلة. لذا كانوا يعدون انفسهم متساوين نظرياً على الأقل في الحقوق والواجبات القبلية العامة (١). واما الأفراد الغرباء عن القبيلة والذين يعيشون في ظلها فهم في نظرهم في عداد الحلفاء، وهم بالتالي لاينحدرون من الجد الاعلى للقبيلة ، وهؤلاء قد وضعوا انفسهم في حمايتها أو في حماية احد افرادها لفترة زمنية محدودة او بصورة دائمية .

ويظهر ان الرسول (ص) قد لمس منذ الأيام الأولى ؛ أو حتى قبل هجرته الى مدينة يثرب ماسيعانيه هو واتباعه من المهاجرين من جراء سكناهم بين اخوانهم الجدد في الدين— الأنصار— في المدينة، اذ كان على معرفة عميقة بالظروف الأجتماعية والتقاليد القبلية المترسخة في نفوس العرب، والتي يصعب ازالتها في فترة زمنية قصيرة، فأصعب ماواجه الرسول (ص) واتباعه النظرة الأجتماعية لأهل المدينة الى اخوانهم في الدين من «المهاجرين» وعليه فلقد اراد الرسول (ص) أن يقيم عن طريق المؤاخاة حلفاً بين المهاجرين والأنصار على اساس الحق والمواساة حتى بلغت الى حد الوراثة وقد ذكر ابن سعد ذلك بقوله «فكانوا يتوارثون بعد الممات دون ذوي الأرحام» (٢) وقال عليه الصلاة والسلام «تأخوا في الله أخوين أخوين» (٣). وبذلك يكون الرسول (ص) قد عمل على

---

(١) العلي : صالح احمد: محاضرات في تأريخ العرب ط١، دار الكتب، الموصل ١٩٨١ م، ط١، ص١٥٣ .

(٢) ابن سعد: محمد: الطبقات الكبرى، د/ط ، دار صادر، بيروت، ٨٠- ١٣٨٨—٦٠ — ١٩٦٨م، ج١، ص٢٣٨— ٢٣٩ .

(٣) ابن هشام : ج٢ ، ص١٢٤

تقديم رابطة العقيدة على رابطة النسب، وقد كان ذلك طبيعياً لأنه بهجرته الى مدينة يثرب كان قد قدم بحكم الأسلام رابطة العقيدة على رابطة النسب، وكذلك فعل اصحابه المهاجرون من قريش (رض) (١) .

وللمؤاخاة بعد حربي الى جانب بعد يها الأقتصادي والأجتماعي. فلقد شرع الرسول (ص) بعد استقراره في المدينة في تهيئة اصحابه للدخول في حرب مع قومهم من« قريش» فكيف يمكن ان يتم له ذلك لو استند الى رابطة النسب دون رابطة العقيدة. وكان لاضافة الأخوة الدينية الى الأخوة القبلية بين المهاجرين والأنصار أن حققت نجاحاً ساحقاً وفر للرسول (ص) قوة ضاربة اعتمد عليها في تحقيق اهدافه وعليها توقفت وحدة المسلمين حيث اصبحت هذه القوة يحسب لها مشركو مكة وغيرهم حساباً كبيراً (٢) .

وأما الصحيفة التي تعد بحق من ابرز تنظيمات الرسول (ص) في وضع الاسس الاولى لنشأة الدولة العربية الاسلامية في الحجاز ، والتي نظم على اساسها العلاقات بين سكان المدينة ، ووضع فيها التزامات جميع الاطراف داخل المدينة وحدد بموجبها الحقوق والواجبات المناطة بالافراد والجماعات والتي اورد نصها ابن هشام في كتاب «سيرة النبي » (٣) بدون سند ، وأوردها ابن سلام في كتابه «الاموال» بذكر السند الكامل لها (٤) وقد تفرد بذلك عن غيره من المؤرخين .

---

(١) انظر رأي : فلهوزن : تأريخ الدولة العربية : ترجمة: محمد عبدالهادي ابو ريده ط٢ ؛ القاهرة ، ١٩٦٨م ، ص ٦-٨ وانظر كذلك Gardet; Louis: op. cit, p. 22.23

(٢) العلوي : هادي : في السياسة الاسلامية ، ط١ ،دار الطليعة ، بيروت، ١٩٧٤ م ص١٥ Gardet; Louis: Loc. cit.

(٣) انظر ابن هشام : ج٢ ، ص١١٩-١٢٠

(٤) ابن سلام : ابو عبيد القاسم : الاموال : تحقيق : محمد حامد الفقي ، المكتبة التجارية القاهرة ، ١٣٥٣هـ- ص٢٠٢

ان فهم الصحيفة مهم جداً لفهم ابعاد الدور الذي كان يضطلع به الرسول (ص) في مدينة يثرب ولا سيما انه قد اعلن عنها في السنة الاولى للهجرة (١) ويقول البروفسور سارجنت (Serjeant) بأن البنود الثلاثين الاولى في الوثيقة (أ ــ ب) قد حددت العلاقة بين المهاجرين وسكان مدينة يثرب جميعاً (٢) . وأن الوثائق الاخرى في مجموعها قد نظمت العلاقة بين المسلمين واليهود الا ان اليهود (٣) على مايبدو قد ادخلوا في الصحيفة بنفس الفترة الاولى (٤) من حيث ان العلاقة بين اليهود وبين الرسول (ص) في السنة الاولى للهجرة كانت جيدة ، وان الصحيفة قد ذكرت اليهود كقبيلة متحالفة وليس بأسمائها كما هو الحال مع القبائل الاخرى (٥) .

ومن الملاحظ على بنود الصحيفة انها حددت مركز الرسول (ص) باعتباره رئيساً أعلى للامة ، يمارس واجباته بحرية تامة وهذا مطلع الصحيفة «هذا كتاب من محمد النبي » (٦) مما يؤكد على انه يعلن بذلك عن دستور لتنظيم امور الامة ، وهي ليست باتفاقية تم عقدها بين اطراف عدة ، وكما هو معلوم لنا ان الدستور لا يضعه الا من كانت له سلطات قضائية وتنفيذية واسعة عند اتباعه او في المحيط الذي يعيش فيه ثم انه قرر بعد ذلك بأنه المرجع الاعلى في حل جميع المنازعات التي تقع داخل حدود مدينة يثرب «وانه ماكان بين اهل هذه الصحيفة من حدث او اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز

---

(١) ابن سلام : ص ٢٠٧

(٢) Serje ant; R . B . : The Constitution of Madina Islamic . J .Quarterty Vol (8).P.3.

(٣) serjeant; R.B. oP'. cit.

(٤) انظر : المقريزي : تقي الدين احمد : امتاع الاسماع بالرسول من الابناء والاموال والحفدة والمتاع : تصحيح : محمود محمد شاكر ، د/ط ، القاهرة ، ١٩٤١م ج١ ، ص ٤٩ ، ١٠٤ .

(٥) انظر : ابن هشام : ج٢ ، ص ١١٩ــ١٢٠

(٦) ابن هشام : ج٢ ، ص١١٩

وجل وإلى محمد رسول الله (ص) » (١) . فهو بذلك يعلن عن نفسه حاكماً وقاضياً وقائداً لهم في الحرب والسلم .

نستخلص مما سبق عرضه ان ادارة الرسول (ص) في المدينة كانت تهدف إلى تكوين امة مترابطة فيما بينها فللأفراد فيها حرية العمل والتنظيم وللسلطة المركزية حق الاهتمام بالعدالة والامن العام وامور الحرب والسلم ، على ان تكون العقيدة الاسلامية اساس اعمالهم وتصرفاتهم . فيكون الرسول (ص) قد وضع الاسس الاولى لبناء الدولة العربية الاسلامية في الحجاز التي كانت المدينة المنورة عاصمتها وقاعدتها والتي انطلق منها الصحابة الاوائل لتحرير البلاد ونشر الاسلام .

---

(١) ابن هشام : ج٢ ، ص١٢٢-١٢٣

قائمة المصادر والمراجع

بن سعد : محمد : الطبقات الكبرى ، د / ط ، دار صادر ، بيروت ٨٠ — ١٣٨٨هـ ٦٠ — ١٩٦٨م .

ابن سلام : ابو عبيد القاسم : الاموال : تحقيق : محمد حامد الفقي ، المكتبة التجارية ، القاهرة ، ١٣٥٣هـ .

بن منظور : محمد بن مكرم : لسان العرب ، د / ط ، دار صادر ،بيروت ١٣٧٥هـ — ١٩٥٦م .

ابن هشام :ابو عبدالله محمد ، سيرة النبي : تحقيق ، محمد محي الدين عبد الحميد د / ط ، دار الفكر ، بيروت ، د / ت .

الواقدي : محمد بن عمر ، المغازي : تحقيق : مارسدن جو / ط ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٩٦٦ .

المقريزي : تقي الدين احمد : امتاع الاسماع بما للرسول من الابناء والاموال والحفدة ، والمتاع : تصحيح : محمود شاكر ، د / ط ، القاهرة ، ١٩٤١م .

الحديثي : الدكتور عبداللطيف : محاضرات في التاريخ العربي ، د / ط ، د / ت .

فلهوزن : يوليوس : تاريخ الدولة العربية : ترجمة : محمد عبد الهادي : ابو ريده ط ٢ ، القاهرة ، ١٩٦٨م .

سالم : عبدالعزيز : تاريخ الدولة العربية ، ط ، مؤسسة الثقافة الجامعية د / م ، د / ت

العسلي : الدكتور خالد صالح : نظم المؤاخاة في عهد الرسول (مجلة دراسات للاجيال ، جامعة بغداد ، العددان ٤ — ٥ ، ت ١ — ١٩٨٣) .

العلي : الدكتور صالح احمد : تنظيمات الرسول الادارية في المدينة (مجلة المجمع العلمي العراقي) المجلد السابع عشر ، بغداد ١٣٨٨هـ — ١٩٦٩م

محاضرات في تاريخ العرب ، ط١ ، دار الكتب ، الموصل ١٩٨١م ، ط ١ .

علوي : هادي : في السياسة الاسلامية ، ط ١ ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٧٤م .

الملاح . أ — د. هاشم يحيى . نشأة دولة المدينة في يثرب (مجلة الجامعة) العدد (١١) السنة الثانية ، ١٩٧٢ . موصل .

المنافقون في مدينة الرسول (مجلة كلية الدراسات الاسلامية) بغداد ، العدد الخامس في ١٣٨٤هـ — ١٩٦٥م .

Serjeant ; R.B. The constitution of Madina Islamic. S. Quarterty. 17 Vol (.8).

G edet; Louis: Mohammed anism, Ner York, 1961.

Hell; J: The Arab Civili ation, Cambridgo, 1925.